

دور الاتجاه التفسيري في القرآن الكريم

محمد جابر علوان

القسم/ الفقه واصولہ/كلية العلوم الإسلامية/ جامعة بابل/ العراق

qur.mohammed.hantoosh@uobabylon.edu.iq

تاريخ نشر البحث: 2022 /2/15

تاريخ قبول النشر: 2021/12/18

تاريخ استلام البحث: 2021/12/5

المستخلص

وجدت أن للواقع السياسي التاريخي بما انطوى عليه من اضطهاد وقمع لآل البيت أثر كبير في تفسير بعض الطوائف الإسلامية كالشيعة الأمامية التي تفارق الموضوعية في توجيهها للنص القرآني باعتمادها على آثار كانت غالباً عما في متنها من تناقضات فيما جاءت متحدثةً فضلاً ومرويات لم تثبت سنداً عنه، وإن آثار القمع السياسي في العصر الحديث شائعة في تفسير من أهم التفاسير المعاصرة وهو تفسير سيد قطب رحمه الله الذي يخرج في بعض سياقاته عن حقيقة الدلالة القرآنية عند اقتطاعها عن الدلالات الأخرى إلى افتراضات عقلية ناجمة عن إرهاب نفسي عايشه المفسر في ظل نظام سياسي مستبد ومن ذلك تعويله في التفريق ما بين دلالاتي الإيمان والكفر على أن المعيار في إثبات الأولى ونفي الثانية هو العمل الذي يراه أبلغ من القول في ذلك ما عليه محققى الأمة من التفريق ما بين الاعتقاد القلبي الذي به مخالفاً يثبت الإيمان أو ينتقي وما بين العمل الذي لا دخل له في الاعتقاد وهذا ما تشهد عليه النصوص الكثيرة من القرآن والسنة.

الكلمات الدالة: القرآن، الإسلام، التفسير، السياسي.

The Role of the Exegetical trend in the Holy Quranic

Mohammed Jaber Alwan

Department / Fiqh and its Origins / College of Islamic Sciences /
University of Babylon / Iraq

Abstract

I found that the historical political reality, with its persecution and oppression of the Ahl al-Bayt, had a great impact on the interpretation of some Islamic sects, such as the Shiite front, which diverges from objectivity in directing the Qur'anic text by relying on effects that were mostly about contradictions in its body, in what was spoken as well and narrations that have not been proven. The effects of political oppression in the modern era are evident in one of the most important contemporary interpretations, which is the interpretation of Sayyid Qutb, may God have mercy on him, which in some of its contexts departs from the truth of the Qur'anic significance when it is cut off from other indications to rational assumptions resulting from psychological exhaustion that the interpreter lived under a tyrannical political regime and from that His reliance on differentiating between the indications of faith and disbelief that the criterion in proving the first and denying the second is the action that he deems more important than saying about that. In belief, this is what many texts from the Qur'an and Sunnah testify.

Key words: Quran, Islam, interpretation, politics

المقدمة:

إن قراءة خاطفة لتاريخ المسلمين السياسي، تؤكد لك هيمنة الفكر الديكتاتوري على مذاهب الاسلام، وعدم وجود رحابة كافية تسمح بالتعددية وقبول الآخر أو الاعتراف به مثل الشيعة أو غيرها وهذا مما انعكس على اسلوب مفسري القران.

وخاصة في ظل انتشار واشتهار الحديث عندهم ركزوا على الرواية التي تقول ستفترق أمتي على اثنتين وسبعين فرقة، فرقة منها ناجية والبقية في النار لكن وجدوا ان اهل البيت هم الفرقة الناجية فتأمل فبعد انقراض الامويين والعباسيين وغيرهم وقيام أنظمة جديدة وضع المسلمين من كل المذاهب أمام ثوب لبسه الاسلام جديد يختلف عما كانوا عليه في القرن الاول والثاني وأعتقد معهم القرن الثالث والرابع. وهذا اللباس هي دستور أفكار بن تيمية، وهذا يحتم علينا قراءة كل طائفة أو مذهب، كل يوم، وعدم الاعتماد على قراءة السلف لهم في القرون الأولى، وهكذا يصح ان تقول ان اسلوب مفسري القران يتغير بين زمن قرن وآخر.

وفي ايسر تعريف للتفسير السياسي للقرآن الكريم نقول: هو مذهب معين في تفسير طبيعة العلاقة بين الدين والسياسة، ويقوم على تأكيد اثبات العلاقة بين الدين والسياسة، ولكنه يتطرف في هذا التأكيد والإثبات إلى درجة تجعل العلاقة بينهما علاقة تطابق و خلط لا علاقة ارتباط ووحده، وبالتالي يساوى بين الدين والسياسة في الدرجة، وقد يتطرف فيجعل السياسة اعلي درجة من الدين حين يجعل الغاية هي الدولة – السلطة، والوسيلة هي الدين، ومرجع هذا التطرف في التأكيد والإثبات ان هذا المذهب إنما ظهر في المجتمعات المسلمة في العصور الحديثة والمعاصرة، كرد فعل على الليبرالية، والتي باستنادها إلى العلمانية نفت وألغت اي علاقة للدين بالسياسة. مصطلح الإسلام السياسي: وقد استخدم البعض مصطلح الإسلام السياسي للتعبير عن هذا المذهب، لكن – وكما أشار الكثير من الباحثين – هناك الكثير من الإشكاليات المتعلقة بالمصطلح، فالمصطلح يوحي بأنه ليس ثمة إسلام واحد، وان هناك إسلام سياسي وآخر غير سياسي، فضلا عن نسبه الاصل (الإسلام) إلى الفرع (السياسي). لذا نفضل استخدام مصطلح التفسير السياسي للدين وليس مصطلح الإسلام السياسي، مع ملاحظه ان المصطلح الأخير يصدق في وصف احد الأخطاء التي وقع فيها التفسير السياسي للدين، وهو نسبه الاصل (الإسلام) إلى الفرع (السياسة) وليس العكس اي نسبه الفرع الى الاصل.

تنوعت الرؤى التي اتجهت لدراسة الاتجاه التفسيري، بوصفها لغة قابلة لاقامة علاقات دائمة التجدد مع القارئ، وتأسست العلاقات على اصول متفاعلة مع فطرة الانسان ووظيفته، وتباينت تلك الرؤى قريبا وبعداً من هدف النص (التأثير والاقناع)، وبين هذا وذاك رؤى تنهض من داخل النص تستعين بالجملة في دلالتها على الغياب فضلاً عن الحضور؛ لتبرز فعل العقل في تمثل تلك الدلالات التي تتركها فيه، وتصبح الجملة فكرة لمحور اشاري يرتهن بها النظام الابلاغي تستوجب من العقل ان يعقل موضوعها، وتنتقل بوصفها مولداً دلاليّاً من علاقة قريبة بين دال ومدلول الى محور يربط بين اتجاه التفسيرية والعقل.

إن فهم القرآن و تطبيقه أولى من حفظه، ولحفظه أجر عظيم، لذلك نرى أهل الخير يهتمون بذلك، ومن أراد أن يحفظ القرآن وعنده إرادة و عزيمة صادقة فليبدأ من حيث شاء وكل له اجتهاده وحجته .. ولكن كثيراً من الذين يبدؤون يفاجؤون بصعوبة الاستمرار، فلمن أراد أن يحفظ القرآن كاملاً أو غير كامل، استمر أم لم يستمر، وهذا نابع من بوردرة التفكير الشخصي للفرد.

المبحث الأول/بيان مفردات التفسير السياسي

من المعروف أن المصطلح الواحد قد تكون له دلالات مختلفة عند أصحاب الفنون المختلفة، حسب عرفهم وتواضعهم، فمصطلح «الصحیح» – مثلاً – له دلالة خاصة في علم الحديث، تختلف عن دلالاته في علم الفقه. ومن هنا: فلا عجب أن يستعمل مصطلح «التفسير السياسي للدين أو الإسلام» بدلالات مختلفة، حسب اختلاف مستعمليه في تخصصاتهم وفي مقاصدهم.

ويمكننا هنا التعريف بثلاثة استعمالات لمصطلح (التفسير السياسي):

المعنى الأول للتفسير السياسي:

التفسير السياسي؛ تفسيرٌ يجعل العقائد والعبادات وجميع شرائع الإسلام وسائل وأسباباً لإقامة النظام السياسي الذي يحقق العدل المادي والسعادة الدنيوية بين البشر، فهو يُفسرُ الدين بتفسير جامع، وصوره كلية؛ تكون فيه الناحية السياسية وحدة أساسية للدين، لا يُعرفُ هدفُ الرسالة النبوية بدون السياسة، ولا يُفهمُ المعنى الكامل للعقائد، ولا تظهر أهمية الصلاة وسائر العبادات، ولا تُقطع مراحل التقوى والإحسان، ولا يُعقلُ الهدفُ من «الإسراء والمعراج» إلّا بالسياسة، وجملة القول؛ فإنه بدون السياسة يبقى الدين كله فارغاً، وغير قابل للفهم، كأنه قد حُذِفَ منه ثلاثة أرباعه. فهو بهذا المفهوم يجعل الجانب السياسي للإسلام هو الأصل الكلي المقصود، وهو الغاية المنشودة، وما عداه فمقصود تبعاً لا أصالة، أو مجرد وسائل خادمة للمقصد السياسي. وهذا المعنى للمصطلح هو المقصود في جميع أبحاث ومنشورات «مركز دراسات تفسير الإسلام» تعريفاً ونقداً وتحذيراً، ويمكن التعرف على تفاصيله وشروحه بدراسة تلك الأبحاث والمنشورات.

المعنى الثاني للتفسير السياسي:

التفسير السياسي؛ تفسيرٌ منهجيٌّ فكريٌّ وبحثيٌّ ينطلق من دعوى أن كل ما يتعلق بالدين من عقائد وعلوم وممارسات وإنجازات وآثار وتطورات تاريخية يخضع للأسباب السياسية إما بصورة كلية أو بصورة جزئية. وفق هذا «التفسير» فإن العامل الأساس في صيرورة «الدين» وسيروته هو: السلطة السياسية، والخلافات السياسية، والصراعات السياسية، وليس العلم

والتدين. فهو يخفي المقاصد السياسية خلف الألفاظ الشرعية، ويتخذ ذلك وسيلة للوصول للمنافع السياسية.

وقد تبنى كثير من المستشرقين والعلمانيين والعصرانيين هذه النظرية، وراحوا يتكلمون في تأييدها بالشواهد الجزئية والوقائع التاريخية، ويبالغون في ذلك ويدلسون ويخرجون الحوادث عن سياقاتها الطبيعية، ثم يدعون أن كتابة المصحف، وتدوين الحديث والفقه الإسلامي، وأحكام السياسة الشرعية، وظهور الفرق الاعتقادية أو المدارس

الفقهية وغير ذلك؛ أسبابها «سياسية» بالدرجة الأولى، إما لإرضاء بعض الحكام، وترسيخ ملكهم، أو لمعارضتهم ومناكفتهم، أو بسبب التعصب والتحزب في الصراعات السياسية.

ولقد تناول الدكتور سلطان بن عبد الرحمن العميري في بحثه الموسوم: «التفسير السياسي للقضايا العقدية في الفكر العربي المعاصر»؛ هذا الاتجاه الفكري والبحثي بالتعريف والتوثيق والنقد، فموضوع كتابه لا علاقة له بالتفسير السياسي للإسلام عند الحركات الإسلامية، حسب الاستعمال الأول المذكور أعلاه.

المعنى الثالث للتفسير السياسي:

التفسير السياسي للقرآن؛ هذا الاستعمال الثالث مرادف لمعنى «التفسير» في الدراسات القرآنية، حيث يتعلق «التفسير» بالتخصصات العلمية الدقيقة، فيضاف إلى تخصص معين، مثل: «التفسير اللغوي»، و«التفسير الموضوعي»، و«التفسير الفقهي = أحكام القرآن»، و«التفسير البلاغي». فالمقصود بـ: «التفسير السياسي للقرآن» ما يقصد بـ: «الفقه السياسي»، أي: البحث والدراسة للآيات والأحاديث والأحكام المتعلقة بالسياسة، لتقرير النظريات السياسية الكلية، أو الأحكام السياسية التفصيلية في الإسلام. وهذا الاستعمال لا إشكال فيه، والفقهاء بحثوا هذه المسائل في «أحكام السياسة الشرعية»، إما في كتب مفردة، أو في ثنايا كتبهم في تفسير القرآن وشرح الحديث أو في مدوناتهم الفقهية. لكن أفراد مصطلح «التفسير السياسي للقرآن» والتركيز عليه سيؤدي إلى الغلو في الجانب السياسي من أحكام الديانة.^[1]

من هنا نتلمس أن نزوع المفسر السياسي يفرض فكرة مقارنة الروحي بالسياسي بمعنى عملية اخضاع القرآن الكريم لخدمة المصالح السياسية وهو يشكل انحرافا عند المفسر لأنه حاول الانتصار لفكرته على حساب (النص المقدس).

المفهوم الإجرائي لأثر الواقع السياسي والفكري: في انحراف التفسير القرآني

مما لا شك فيه ان التفسير السياسي الواقع الفكري في انحراف لتفسير القرآني يتلائم مع فكرة أن التفسير السياسي هو عملية ليّ النص لخدمة السياسة ويتضح من خلال تعريف المصطلحات الثلاث (الواقع - السياسة - الفكر).

عرف: (بأنه الحاصل والحادث وهو يتألف من انتظام الوقائع التي ينطوي أما الواقع في عليها في علاقات وأنماط تاريخية)^[2].

وأما السياسة فلها تعريفات شتى أهمها القول: (إن علم السياسة يقوم على دراسة السلطة في المجتمع وعلى دراسة أسسها وعملية ممارستها وأهدافها ونتائجها)^[3].

ولقد عرفه الجرجاني بأنه: (ترتيب أمور معلومة لتؤدي إلى مجهول)^[4].

وأما الفكر فيعرفه فيقول هو: (إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول ويقال لي في الامر، فإذا ما وصف الفكر بأنه فكر إنساني عام فهو ما نتج عن فكر ونظر ورؤية وانما انطلق من فكر مستقل ولم ينطلق من مفاهيم الإسلام الثابتة في القرآن والسنة،^[5] وتبتعد عنه أحيانا أديان وعقائد ومناهج أخرى تقترب من الإسلام حيناً أخرى وإذا ما وصف بالإسلامي فهو كل ما أنتج فكر المسلمين منذ مبعث رسول الله (ﷺ) إلى اليوم

من المعارف الكونية العامة المتصلة بالله سبحانه وتعالى والعالم والإنسان والذي يعبر عن اجتهادات العقل الإنساني في تفسير تلك المعارف^[6]. العامة في إطار المبادئ الإسلامية عقيدة وشريعة وسلوكا ومن حيثيات التعاريف السابقة يتبين لنا أن للسياسة أثر في الواقع الإنساني الذي يعيشه المفسر ويتأثر به، كما إن الفكر بشقيه الإنساني والإسلامي هو تعبير عن اجتهادات العقل الذي يقضي عادة إلى الاختلاف والتنوع في الرؤية بالرغم من مقاربة الفكر الإسلامي الأصولي للصواب لاعتماده على الوحي في مسيرته. لذلك يمكن القول إن المراد بأثر الواقع السياسي في التفسير القرآني كمفهوم إجرائي في هذه الدراسة:

هو ما أفرزته السلطة السياسية من خلال ممارساتها من تأثيرات في عقلية بعض المفسرين في توجيه النص القرآني.

وأما أثر الواقع الفكري: هو ما تركته عملية الصراع الفكري بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى وما تركه أيضا صراع المذاهب والفرق الإسلامية فيما بينها من تأثيرات في عقلية بعض المفسرين في توجيه النص القرآني. ومن هذين المفهومين الإجرائيين تتحدد طبيعة هذه الدراسة بأنها ليست دراسة استقصائية لكل أنواع الانحرافات في التفسير بالقدر الذي تؤكد فيه على فكرها مدارها أن للواقع في ذلك الانحراف لدى بعض المفسرين.

المبحث الثاني/ أقوال العلماء في أثر الواقع السياسي والفكري في انحراف التفسير القرآني

وإنه لما حدثت بدعة الفرق، والتطاحن المذهبي يقول محمود شلتوت والتشاحن الطائفي، وأخذ ارباب المذاهب، وحاملوا رايات الفرق المختلفة يتنافسون في العصبية المذهبية والسياسية، وامتدت أيديهم إلى القرآن فأخذوا يوجهون العقول في فهمه وجهات تتفق وما يريدون، وبذلك تعددت وجهات النظر في القرآن واختلفت مسالك الناس في فهمه وتفسيره، وظهرت في اثناء ذلك ظاهرة خطيرة هي تفسير القرآن بالروايات الغربية والإسرائيليات الموضوعة التي تلقفها الرواة من أهل الكتاب آياته، ومنهم من عنى بتنزيل القرآن على جمل القرآن وتفصيلا لم وجعلوها بيانا^[7].

كذلك يؤكد الدكتور محسن عبد الحميد على هذا المعنى مبينا التأويلي للقرآن فيقول: (ولا ريب أن هذه التأويلات العقلية جرت في إطار قواعد اللغة عرف العرب في الاستعمال، وكانت تعبر عن حركة تطور داخلي في العربية أو الصراع السياسي والفكري في المجتمع الإسلامي، إذ من المعلوم أن المجتمع الإسلامي بعد الفتوحات ودخول أقوام ذات حضارات سابقة فيه وسقوط الخلافة الراشدة وقيام الدولة الأموية وتطور الأحداث الداخلية منذ الفتنة في زمن عثمان بن عفان وما تلاه من أحداث القتال بين الإمام علي (عليه السلام) ومعاوية ابن أبي سفيان وما انتهى إليه من ظهور الأحزاب السياسية... قد مر بتغيير اجتماعي وفكري داخلي محض، حاول كل طرف فيه أن يستخرج أدلة ما عنده من الأفكار والمقالات من القرآن الكريم باعتباره القاعدة العقيدية والحضارية التي كانت.

منطلق كل صاحب سياسة أو مقالة منها، وفي هذا السياق أيضا يذكر خالد عبد الرحمن العك جروح المتكلمين إلى القرآن كأحد آثار الصراع الفكري الذي أفرز آراء قد تتعارض مع التأويل المتعس بعض النصوص القرآنية فيقول في ذلك: (إن المتكلمين يلجؤون إلى تأويلاتهم حينما يصادفون نصوصا من الكتاب والسنة لا تتفق مع آرائهم، فيسعون بشتى أنواع خرجوا النصوص عما سيقفت له... وليطابقوها على المعاني التي التأويلات ويحملون النصوص ما لا تتضمنه من المعاني المتكلفة ما يريدون إثباتها... وكثيرا أو ليؤيدوا بها رأيا ليدفعوا بها معارضا^[8]).

أثر الواقع السياسي

من أكثر التفاسير للقرآن تأثرا بواقعها السياسي هي التفاسير الشيعية يقول خالد عبد الرحمن في ذلك: (ولعل انشط الطوائف في تفسير القرآن تفسيرا هم الشيعة وقد توسعوا في ذلك، وصارت لهم تفاسير خاصة، وغالى البعض في هذا المجال مغالاة سيئة مذهبيا أو سياسيا).
فيقول في مجموع التفاسير المتعصبّة للشيعة: (أما جولد تسهير في كتابة تفسير شيعي كامل للقرآن إذا أريد استيعاب مجموع هذا التفسير الحزبي المتعصب)^[9].

أهل مصر سياسيا ومثل موقفا كما يوضح أن تفسيرهم للقرآن في السنة فيقول: (إن اعظم سخط الشيعة على مذهب أهل السنة يتركز في دائرة تفسير، وقال محمود شكري الألوسي اعتقد له: (وقالوا لا يصح عتق عبد أو أمة تفسيرهم لهذه الآية ومفندا وموضحا مذهب أهل السنة أو غيرهم ممن خالف الإثني عشرية، مع أنه لا دليل لهم على هذا لا من كتاب ولا من سنة، وما ذلك إلا محض عناد وجهل بالمراد، ألا ترى إن عتق عن أن يكون له مذهب، وقد ثبت إيمان أهل السنة في العبد الكافر صحيح، فضلا (كتبهم)

الرفض والتشاؤم

من أكثر التفاسير رواجاً في الوسط السني المتقف هو تفسير في ظلال القرآن مثل في بعض سياقاته انعكاسا للواقع السياسي المظلم لسيد قطب رحمه الله والذي عاشه هذا المفسر وبين لنا ذلك الشيخ القرضاوي بقوله: (يجب أن نعترف أن لانتشار نوع خصبا في الخمسينات والستينات كانت مجالا للفترة الماضية وخصوصا من الأفكار السوداء في الساحة الإسلامية فقد غلب الفكر الذي ينزع إلى الرفض والتشاؤم والالتهام وسوء الظن بالآخرين على اختلاف نزعاتهم واتجاهاتهم، حتى المسلمين منهم. أجل راجت فكرة التفسير والتبديع والتكفير وساعد على ذلك الجو الخانق الذي كانت تعيشه الحركة الإسلامية ورجالها ودعاتها الذين نصبت لهم تلوا بأدوات التعذيب خفية، أو صبت عليهم ألوان التكيل والتشريد المشانق جهرة، أو تحت الأبواب أمام الشيوخ والعلمانيين وكل خصوم من كل جهة في حين فمثلة المرحلة الأخيرة الإسلام في هذه المرحلة ظهرت كتب الشهيد سيد قطب التي من تفكيره والتي تنضح بتكفير المجتمع، وتأجيل

الدعوة إلى النظام الإسلامي، والسخرية بفكرة تجديد الفقه وتطويره، وحياء الاجتهاد، وتدعو إلى العزلة الشعورية عن المجتمع، وقطع العلاقة مع الآخرين، وعلان الجهاد الهجومي على الناس كافة والاستخفاف بدعاة التسامح والمرونة، ورميهم بالسذاجة والهزيمة النفسية أمام الحضارة الغربية. يتجلى ذلك أوضح ما يكون في تفسير

الشهيد (في ظلال القرآن) في طبعته الثانية وفي (معالم في الطريق) ومعظمه مقتبس من الظلال وفي (الإسلام ومشكلات الحضارة) وغيرها، وهذه الكتب كان لها فضلها وتأثيرها الإيجابي، ولو أخذنا نماذج من تفسير سيد قطب الكبير، كما كان لها تأثيرها السلبي) رحمه الله لم نجد الشيخ القرضاوي مفارقاً للموضوعية في تحديده للأفكار التي أفرزتها كتاباته فنجده يقول في توجيهه للآيات التي تناولت الحاكمية: (وليس لأحد انني أبصر بمصلحة الخلق من الله من عباده أن يقول: إنني أرفض شرعية الله فإن قالها بلسانه أو بفعله فقد خرج من نطاق الإيمان).

ثم يأتي لتفسير قوله تعالى (سورة البلد: 11-14)

فيقول: (بهذا الحسم الصارم الجازم وبهذا التعميم) [10]

الذي تحمله من الشرطية وجمله الجواب بحيث يخرج من حدود الملابس والزمان على كل من لم يحكم بما أنزل الله، في أي جيل، ومن عاما والمكان وينطلق حكما أي قبيل والعلة هي التي أسلفنا هي أن الذي لا يحكم بما أنزل الله، إنما يرفض ألوهية الله. فالألوهية من خصائصها ومن مقتضاها الحاكمية التشريعية ومن يحكم بغير ما أنزل الله، يرفض ألوهية الله وخصائصها في جانب ويدعي لنفسه هو حق الألوهية وخصائصها في جانب آخر وماذا يكون الكفر إن لم يكن هو هذا وذاك؟، وما قيمة من الكلام ينطق بالكفر دعوى الإيمان أو الإسلام باللسان، والعمل وهو أقوى تعبيرا افصح من اللسان.

وفي سياق تفسيره لآيات الحاكمية نجده ينتقل من نفي الإيمان عن الحكام إلى نفيه عن المحكومين فيقول: (فيجب كيف ساغ لمسلم يدعى الأسلام أن يترك شريعة الله كلها، بدعوى الملابس والظروف وكيف ساغ له أن يظل يدعى الأسلام بعد هذا الترك الكلي لشريعة الله وكيف لا يزال الناس يسمون أنفسهم مسلمين؟! وقد خلعوا ربقة الإسلام من رقابهم، وهم يخلعون شريعة الله كلها، ويرفضون الإقرار بالألوهية، في صورة رفضهم الإقرار بشريعته، وبصلاحية هذه الشريعة في جميع الملابس والظروف، وبضرورة تطبيقها كلها في جميع الظروف والملابس)

وكل هذه التعبيرات القاسية في تفسير آيات الحاكمية من قبل سيد قطب رحمه وبرأيي المدعم برأي كبار منظري الحركة الإسلامية كالشيخ القرضاوي والأستاذ عبد المنعم صالح العلي الملقب بالراشد والذي استساغ رأي الشيخ القرضاوي في كتابات سيد قطب في كتابه الله إنما هي انعكاس لقسوة الدافع السياسي الذي عاشه هي نصية لا تحتل التأويل في نفي الإيمان عن الحكام ومنهجية التربية الدعوية لما ذكره صلاح عبد الفتاح الخالدي من نقول عن بعض والمحكومين خلافا وهذا لا يعدو أن يكون استدراكا [11] معاصريه من أن سيد قطب كان يبرأ من التكفير الهائل من كتاباته النصية كما يمكن اعتباره إذا ما قورن بالكم منه لم يوثق توثيقا السياقات السابقة التي ينص على نفي الإيمان عن الحكام والمحكومين من خلال قرينة السلوك والعمل الظاهر الذي يتمثل من الحكام بالحكم بغير ما أنزل الله ومن المحكومين بالرضى المعبر عنه بعدم الاعتراض الفعلي كسلوك ظاهر للعيان وهذا ما يخالف به أهل السنة والجماعة الذين يعولون على الاعتقاد القلبي لا العمل والسلوك الظاهر في إثبات الإيمان أو نفيه فالأعمال غير داخلة في حقيقة الإيمان هذا ما نص عليه كبار محققي الأمة لأستفاضة الأدلة الشرعية في

ذلك فضلا عن أن للمفسرين في الآية⁽⁴⁴⁾ من سورة المائدة تفصيلات بعيدة عن تعميمات سيد قطب رحمه الله منها قول إمام المفسرين ابن جرير الطبري: (إن الله تعالى عم بالخبر بذلك عن قوم كانوا بحكم الله الذي حكم به في كتابه جاحدين، فأخبر عنهم أنهم بتركهم الحكم على سبيل ما تركوه كافرون وكذلك القول في كل من لم يحكم بما به هو بالله كافر كما قال ابن عباس، لأنه بجحوده حكم الله بعد أنزل الله جاحدا علمه أنه أنزله في كتابه، نظير جحوده نبوة نبيه بعد علمه أنه نبي)

فترى في سياق هذا الكلام أن المقصود بالكفر في هذه الآية هو من كان جاحدا للشريعة لا مجرد تركه لها والجحود فعل قلبي لا علاقة له بالعمل.

كما وجدت أن السياسيين المعاصرين من الشيعة من أصحاب العلم الشرعي لا ينفك أحدهم من أن ينتصر لمذهبه من خلال توجيه النصوص القرآنية توجيها يعزز مكانتهم السياسية في العالم الإسلامي باعتبارهم التابعين لمن كان مدارا للخطاب القرآني دون غيره من الصحابة وهو الإمام علي (عليه السلام) ويرون روايات ضعيفة على ما يريدون الاستدلال به ومنهم الشيخ محمد حسن آخترى السفير الإيراني في سوريا إذ يقول في أحد المؤتمرات العلمية حول علوم القرآن: ليس من آية في القرآن ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إلا وعلي رأسها وأميرها وشريفها فلقد عاتب الله إلا بخير ويسرني أن أصحاب محمد (ﷺ) في القرآن وما ذكر عليا من الآيات النازلة حول الإمام علي وفاطمة الزهراء وأولادهما .

المبحث الثالث/ أثر الواقع الفكري التاريخي والحديث في انحراف التفسير القرآني

المغالاة في التفسير

ولما اذكر مجموعة من أبرز الفرق الإسلامية التي تأثرت بواقعها الفكري في طريقة تفكيرها وتفسيرها لأحد المستشرقين في للقرآن هي المعتزلة رأيا يقول محمد عاطف العراقي ناقلا له: (يقول ينبرج في مقدمته لتحقيق كتاب الإنتصار أما الأصل الثاني العدل للخياط بيان ذلك ومصوبا جيرة فهو بلا شك موضوع للرد وكانت المجبرة قد قويت ونمت وبعض من قال بوقوع الظلم من الله من الرفضة الذي أقدم على ما لا يطاق^[12]، في ذلك الزمان وظهر على رأسهم جهم بن صفوان من القول بالجبر وغالى فيه مغالاة لم يسبقه إليها أحد وثبت بالتاريخ أن المعتزلة ناظرت الجهمية وتبرأت منها... هذا ما يقوله ينبرج، وهو على صواب في هذا القول إذ ان المعتزلة قد بحثوا في هذه المشكلة معارضين رأي الجبرية) آخر من جوانب تأثر المعتزلة بواقعها بين خالد عبد الرحمن العك جانبا كما ان الجانب الفكري الذي أدى إلى انحرافها في التفسير فيقول: (وأما المعتزلة فقد توسعوا في لمنهج الفلاسفة القائم على تفسير الغيبات تبعا محضا عقليا تفسير القرآن تفسيراً، حتى تناولوا صفات الله تعالى، وعلى الأخص (العدل) فأوجبوا على الله عقليا تفسيراً سبحانه في مسألة العدل ما يجب على الإنسان فيه... وأخذوا يخضعون الكثير من يتعارض مع مذهبهم أعملوا الآيات الكريمة على مقتضى مذهبهم وكلموا صادفوا نصا فيه التأويل ليصرفوه عن معناه المراد، إلى معاني أفكارهم ولذلك انحرقت المعتزلة في تفسيراتها خدمة لأرائها،

وبغض النظر عن الحثيات الداعية لانحرافها انحرفا شنيعا لتبني العدل كأحد أصول مذهبهم المهمة فهو أصل باطل فيما سيؤدي إليه يقول بإثبات العدل وحده الله .

فيما قال علي سامي النشار في بيان ذلك: (فقد مزقوا التوحيد حقا في باب العدل غير واحد في فعله بل يشاركه الإنسان في الفعل وسرى الأشاعرة بعد يعلنون أن المعتزلة مهدوا الطريق للتثنية بإيجاد خالقين للأفعال، الله فاعل ولكن سياق المذهب الخير والإنسان فاعل الشر ولم يقصد المعتزلة هذا اطلاقا سيؤدي إليه^[13]).

وبالرغم من بطلان هذا الأصل ومؤاده نجد المعتزلة يتأولون الآيات لأثباته رادين جبرة والمشبهة و إلى أقطع في ذلك على أهل السنة والجماعة ومنزليهم منزلة ، ومن ذلك فنجد الزمخشري مثلا يقول في تفسيره للآية (18) و(19) من سورة آل عمران: وقوله ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى. فإن قلت: ما فائدة هذا التوكيد ؟ قلت فائدته أن قوله توحيد ﴿لا إله إلا الله﴾ .

وقوله ((قائما بالقسط)) تعديل فإذا أردفه قوله: ((إن الدين عند الله الإسلام)) فقد أدن أن الإسلام هو العدل والتوحيد وهو الدين عند الله وما عداه فليس عنده في شئ من الدين وفيه إن من ذهب إلى تشبيهه أو ما يؤدي إليه كإجازة الرؤية أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور، لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام وهذا بين جلي كما كلامه ابن المنير (تري) إذ يقول: إن الكلام مصدر ورد مستقيما لغويا بالتوحيد ثم اعقب التوحيد تعداد الشاهدين به قائما رد بالقسط وهو التنزيه، فطال الكلام بذلك فجدد التوحيد تلو التنزيه ليلي قوله ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ ولو لا هذا التجديد لكان التوحيد المتقدم كالمنقطع في الفهم مما أريد إيصاله به والله. كما رد على الزمخشري في تفسيره هذا عمر بن محمد السكوني قائلا : إنهم يريدون بذكر العدل خلقهم لأفعالهم دون الله تعالى وهو في الحقيقة شرك بالله حال ويريدون بالتوحيد الذي ذكره أن الله لا يرى في الدنيا ولا في الآخرة، وهو في الحقيقة تكذيب لله ولرسوله... والتعديل الحقيقي هو العلم بأن الله يقدر كما يريد ويحكم في خلقه ما يشاء من غير حجر عليه تعالى له أن يفعل فيهم والتوحيد الحقيقي هو العلم بأن الله تعالى واحد في ذاته وصفاته وأفعاله) ثم يبين فساد مذهبهم فيقول: (وعندهم إن من اعتقد أن الله تعالى يخلق أعمال العباد، فهو جبري ومجوز، وإن أثبت قدرة للعبد يكتسب بها، وليس كما توهموه بل الجبري هو الذي ينكر القدرة الحادثة، ويزعم أنه في كسبه كالمضطر والمجوز وهو باطل أيضا بالضرورة كما بطل الشرك بالله بالبراهين وليس أهل الحق من مذهبي. (والجبرية في شئ) و(القدرية) كما يقول: (واعلم إن المعتزلة في هذه المسائل على غلط عظيم لا يرتضي القول به من له أدنى مسكة من عقل فأين إثبات رؤية الله من نفي الوجدانية وأين على الاطلاق من نسبة أفراد الله تعالى بخلق جميع المخلوقات، وإثبات ملكه عليهم (الظلم والجور إليه)^[14]).

التفسير السياسي والواقع الفكري

لم يخلو الواقع الحديث من تأثر بعض أصحاب الثقافة الإسلامية بالأفكار الغربية وطبيعتها المادية في تفسير الظواهر حتى بلغ ذلك التأثير أن طال أحد أقطاب الإصلاح الديني في عصر النهضة الحديث وهو الشيخ محمد عبده رحمه الله ويكشف لنا أحمد أمين إلى أي مدى بلغ تأثره بالحضارة الأوروبية فيقول: (وكان يقرأ في بيته

لبعض الطلبة تهذيب الأخلاق لمسكويه وأعجب له يقرأ لهم أيضا تاريخ المدنية في أوربا وفرنسا، لمؤلفه الفرنسي فرانسوا جيزو)^[15].

وفي هذا السياق يقول فضل حسن عباس: من دراسات الدكتور حامد أبو زيد في دراسة في علوم القرآن (من تلك المؤثرات في شخصية الشيخ، طواف وتلك الرحلات في البلدان الأوربية، حيث اطلع على نظمها وأساليب الحياة فيها والتقدم العلمي الذي وصلت إليه، فكان لذلك كله أثر غير خاف (في منهجة الإصلاحية والعلمي).

وما يثبت اهتمامه بالثقافة الاوربية امتلاكه للغة الفرنسية حيث يقول الشيخ محمد عبده رحمه الله في حديث عن نفسه: (بدأت بتعلم اللغة الفرنسية عندما كانت سني (أربعا وأربعين سنة) (68). ويبدو أنه كان لتعلمه اللغة الفرنسية أثرا بكتابات المؤلفين الفرنسيين على وجه الخصوص يقول عبدالله محمود شحاته في بيان ذلك: (قد كان الإمام الأستاذ متأثرا في حديثه عن المعجزات والنبوات بالمؤلفين الفرنسيين فهو يحاول أن يقرب إلى علل وقوعها بما يوافق العلم والعقل ويقربها من خضوع الأذهان المعجزات الألهية والأسباب للمسببات فمن ذلك حديثه عن خلق عيسى من غير أب حيث يقول: (ويمكن تقريب هذه الآية من السنن الإلهية المعروفة من نظام الكون بوجهين:

الوجه الاول: إن الاعتقاد القوي الذي يستولى على القلب وعلى المجموع العصبي يحدث في عالم المادة من الأثار ما يكون على خلاف المعتاد فكم من سليم اعتقد له اعتقاده أنه مصاب بمرض كذا وليس في بدنه شيء من جراثيم هذا المرض فلو أنه القي الماء القراح أو نحوه فشربه معتقدا وكم أمرئ سُمَّ بتلك الجراثيم ومات أو صار مريضا، والحوادث في هذا الباب كثيرة اثبتتها التجارب، وإذا كان سما غير مميت فأن الله سيهب لها الروح. اعتبرنا بها في أمر ولادة المسيح نقول: إن مريم لما وهبها الله ولدا بمحض قدرته، وهي على ما هي عليه من صحة الإيمان وقوة اليقين، انفعَل مزاجها بهذا الاعتقاد انفعالا فعل في الرحم التلقيح، كما يفعل الاعتقاد القوي في مزاج السليم فيمرض أو يموت، وفي مزاج المريض فيبرأ...

الوجه الثاني: وهو أقرب إلى الحق وإن كان أخفى وأدق وبيانه يتوقف على مقدمة وجيزة في تأثير الأرواح في الأشباح وهي أن المخلوقات قسمان: أجسام كثيفة وأرواح حدث في الكثيف الحي ما نراه فيه من النمو والحركة لطيفة، وأن اللطيف هو كما يقول في خلق (والتولد الذي يكون من النمو أو يكون النمو منه عيسى ونحن نرى علماء الغرب وفلاسفته متفقين على إمكان التولد الذاتي... ونحن نستدل على وقوعه بالفعل، بخبر الوحي الذي قام الدليل على صدقه، وعلق فضل حسن عباس على هذا الكلام بقوله: (إن نظرية التولد الذاتي ثبت بطلانها بعد التجارب التي قام بها بستير الفرنسي وذلك قبل زمن عبدالله محمود شحاته.

كما رد على جملة كلامه حول خلق عيسى قائلا: إذا دقت النظر في الموضوع، رأيت في حقيقته معجزة من الله أراد أن يثبت بها أن أوامره لا تخضع لأسباب الناس وأنه على كل شيء قدير، وأن أمره كن فيكون والمعجزة في تعريفها أمر خارق للعادة، والله تعالى قال في كتابه حيث علل خلق عيسى بما يقر، ونحن إذا استطعنا أن نؤمن بهذه الأشياء على أنها أثر من قدرة الله وهي فوق القدرة، من السنن المعروفة في نظام الكون

فماذا عسى أن نصنع في تعليل خلق آدم ألا يكون من الأولى أن نؤمن به، وانه مما يعجز العقل عن إدراك سره^[16].

ومن ان إرادة الله والله فعّال لما يريد، ومن انحرافاته في التفسير تفسيره لسورة الفيل حيث جوز أن تكون الطيور ذبابا او بعوضا بأثره كما جوز أن تكون الحجارة جراثيم أو مايكروبات فيقول: (وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدي أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الحيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فإذا اتصل بجسده دخل في مسامه، فأثار فيه من هذه الطيور تلك القروح التي تنتهي بإفساد جسمه وتساقط لحمه... وأن كثيرا عده من أعظم جنود الله.... وأن هذا الحيوان الذي يسمونه الآن بالمايكروب لا يخرج عنها ورد هذا الكلام الشيخ الذهبي بقوله: (وهنا أيضا نجد الأستاذ الإمام قد خالف طريقته في مبهمات القرآن فراح يخوض في التفصيلات والجزئيات ثم جوز أن تكون الطير هي ما يسمى اليوم بالميكروبات، كما جوز أن تكون الحجارة هي جراثيم بعض الأمراض، وهذا ما لا نقره عليه، لأن هذه الجراثيم التي اكتشفها الطب الحديث لم يكن للعرب علم بها وقت نزول القرآن والعربي إذا سمع لفظ الحجارة في هذه السورة لا ينصرف ذهنه إلى تلك الجراثيم بحال من الأحوال، وقد جاء القرآن بلغة العرب وخاطبهم بما يعهدون ويألفون.

نتائج تسييس التفسير

لعل من نتائج التفسير السياسي للقرآن الكريم تلك الانظمة السياسية الحاكمة باسم الدين منطلقة من رؤية تفسيرية مخالفة لقواعد القرآن بكل الاحوال ونضرب لذلك مثلا هناك عدة آيات في القرآن تمّ التأكيد فيها على طاعة الله ورسوله، ولكن واحدة منها في سورة النساء كانت كالتالي: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ سورة النساء (59).

رغم أن هذه الآية تشير لأولي الأمر بصيغة الجمع بما يعني زعماء محليين مثل شيخ القبيلة أو وجيه القوم أو كبير العائلة، لكن شيوخ السلطان استخدموها وفسروها كأمر من الله لإطاعة الحاكم الملك أو الأمير، كما اعتمدوا على مجموعة كبيرة من الأحاديث التي تدعم رأيهم هذا، والتي تحضّ على السمع والطاعة لهؤلاء الحكام مثل: (عن ابن عباس قال قال النبي ﷺ من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبرا فيموت إلا مات ميتة جاهلية، أخرجه البخاري ومسلم، وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله: اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة، أخرجه البخاري، وفي أحد الأحاديث الأخرى عن أبي سلام قال حذيفة بن اليمان مقطوع في آخره يقول: تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع، أخرجه مسلم، وفي حديث آخر عن أبي بكره قال قال رسول الله: السلطان ظل الله على الأرض فمن أهانه الله ومن أكرمه أكرمه الله، أخرجه ابن أبي عاصم والبيهقي، وعشرات الأحاديث المماثلة. وحول المصدر الثالث للتشريع الإسلامي وهو الإجماع فقد قال النووي: أما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين

وإن كانوا فسقة ظالمين وأجمع أهل الأمة على أنه لا ينزل السلطان بالفسق، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: ولهذا روي أن السلطان ظل الله في الأرض ويقال ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان فالواجب اتخاذ الإمارة دينا وقربة يتقرب بها إلى الله فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات، وقال الفضل بن عياض: لو كان لي دعوة مستجابة ما جعلتها إلّا في السلطان، وحديث للبيهقي يقول: الجهاد واجب عليكم مع كل أمير برّا كان أو فاجرا وإن عمل الكبائر. وعشرات الأمثلة الأخرى لأحاديث من هذا النمط [17].

هذه الأحاديث لا تتفق مع بدايات الإسلام وتاريخه ولا مع القرآن، فقد قدم الإسلام نفسه كثورة للمستضعفين ضد الجبرة المتحكّمين، وقد ذكرت الملوك عدة مرات في القرآن كان أغلبها بصيغة الجبار العنيد الذي يجب مقاومته والنضال ضده: ﴿قالت إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون﴾ سورة النمل 34. كما أن هناك آيات تدعو صراحة لعدم الخوف والتمرد على الحكام الظالمين ﴿إلّا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأنتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون﴾ سورة البقرة 150. ﴿ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تتصرون﴾ هود 113. ﴿فاستخفّ قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين﴾ الزخرف 54. هذه الآيات القرآنية معناها واضح وتؤكد على عدم إطاعة الأمراء الظالمين الفاسقين والذين يستخفون بقومهم، بما يتناقض تماما مع الأحاديث التي يحرص على ترديدتها شيوخ السلطان، كما أن الفترة المبكرة من الإسلام لا تتفق أيضا مع أمثال هذه الروايات، وما نعرفه عن تلك الأيام يختلف تماما عن مبدأ الطاعة العمياء هذا، حيث أن أبو بكر الصديق حسب مراجع التراث قد قال في خطبته عند تولّيه الخلافة: (يا أيها الناس لقد وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني)، ورغم ذلك فإن عددا من كبار الصحابة لم يبايعه مثل الامام علي بن أبي طالب عليه السلام وعموم بني هاشم وسعد بن عباد زعيم الخزرج وعمار بن ياسر والزبير بن العوام وأبو ذر الغفاري وغيرهم. وتاريخ الصراعات السياسية في ذلك الوقت معروف بالتفاصيل، أن صحّة الأحاديث المنسوبة للرسول والتي تدعو لطاعة أولي الأمر، والمفروض أنها كانت حديثة العهد وقتها وأن يكون هؤلاء الصحابة قد سمعوا من الرسول قبل غيرهم لو كانت صحيحة ولما كانوا اختلفوا حينها.

الخلافة الأموية:

مع الخلافة الأموية والعباسية وما بعدها تحول شكل الدولة الإسلامية إلى النموذج الوراثي الذي تنتقل فيه السلطة للأبناء بغض النظر عن مواصفاتهم، وسلوك الكثير من هؤلاء الخلفاء كان بعيدا تماما عن أي اعتبارات دينية أو أخلاقية، وبدأت منذ تلك الأيام الحاجة لشيوخ السلطان وفتاويهم التي تزداد طردا مع فساد الحاكم وظلمه وجهله وحماقته، واستخدم هؤلاء الشيوخ هذه الآية الوحيدة التي تمر بها عبارة طاعة أولي الأمر لهذا الهدف ثم روجوا لهذه الأحاديث التي لا تتماشى مع القرآن ولا مع ما نعرفه عن تاريخ بدايات الإسلام ولكنها تنسجم مع مصالح الحكام على مر العصور، وقد جعل هؤلاء الخلفاء والملوك والرؤساء بمساعدة حاشيتهم من رجال الدين أي تشكيك بصحة هذه الأحاديث هجوما على الدين وعلى كتب الصحاح التي وضعوها بمنزلة من التقديس قريبة

من القرآن. وكمثال على ذلك فقد قال الإمام الشوكاني: واعلم أن ما كان من الأحاديث في الصحيحين أو في أحدهما جاز الاحتجاج به دون بحث، وقال أبو الحسن الندوي (وليس الاتفاق بين الأمة وعلمائها مجرد مصادفة - حول كتب الصحاح - ولا عن تواطؤ ومؤامرة... بل كان ذلك إلهاما من الله)، أي أنهم يريدون إغلاق الباب أمام إخضاع هذه الأحاديث لأي بحث أو تحقّق من صحتها مهما كانت غريبة أو ضعيفة أو بعيدة عن العقل [18].

في أيامنا هذه نرى ما يحدث في الدول الديمقراطية المتطورة من تداول للسلطة كل بضع سنوات مع قضائها المستقل وإعلامها الحر، ونرى أن أي هفوة سياسية أو شخصية للرئيس أو الوزير أو أي مسؤول قد تضعه تحت سلسلة من التحقيقات والمحاسبة تجعل من الصعب عليه الاحتفاظ بمنصبه إذا لم تثبت براءته، ولذلك تبدو المواضيع التي نناقشها مثل طاعة أولي الأمر الملوك والرؤساء مهما ارتكبوا من موبقات وجرائم بحق الشعب والبلد وكأنها من عصر وعالم آخر، ورغم ذلك كل المؤشرات تدل على أن إعادة قراءة كتب التراث بعين ناقدة موضوعية لتنتقيتها من الشوائب التي دخلتها في عصور الانحطاط مازال حلما بعيد المنال.

ماهية السياسة في القرآن الكريم :

ومن القيم التي ستأولها- بإذن الله- في هذه السلسلة: (القيام بالقسط) و(الشورى) و(المشاورة) و(الأمانة) و(القوة) و(النصح) و(الطاعة) و(النصرة) و(المدافعة) و(الإجماع) و(مال الله).. كما سنتناول معايير الكفاءة السياسية في القرآن والسنة، ومناهج التغيير السياسي في الإسلام... وغير ذلك من معان جليلة، جاء بها الإسلام لتنظيم الشأن العام، وضيّعها المسلمون فضاغوا، بعد أن ضمرت في حياتهم، وانحسرت دلالاتها، وانطمرت معانيها في ركام الجدالات الصورية والتكيفات الفقهية والخلافات اللفظية.

لقد أدرك عددٌ من علماء الإسلام ووُعاه المعاصرين، أن القيم السياسية الإسلامية لم يسمح لها السياق التاريخي الامبراطوري بالحياة والتفتق. ومن هؤلاء الفيلسوف الشاعر محمد إقبال الذي لاحظ أن القيم السياسية الإسلامية (بقيت أجنة) إذ لم تجد سياقاً مناسباً للنمو الطبيعي، ومنهم الفقيه الدستوري عبد الرزاق السنهوري الذي توصل إلى أن الفكر السياسي الإسلامي لم يتجاوز (مرحلة الطفولة) إلى اليوم. ومنهم مالك بن نبي الذي لاحظ أن الحضارة الإسلامية في شقها السياسي (لم تنشأ عن مبادئ الإسلام، بل إن هذه المبادئ هي التي توافقت مع سلطة زمنية قاهرة)، ويمكن إرجاع هذا الضمور إلى أسباب عدة، نذكر منها:

1. جدلية الاكتساب والاستيعاب: فقد كان مستوى اكتساب المنضوين إلى الإسلام أيام الفتوح أوسع من مستوى استيعابهم في الأطر المنظمة لمجتمع المؤمنين: كان الإسلام أوسع من الإيمان.
2. انهيار الخلافة الراشدة، وما نتج عنه من تحويل وجهة التدين وحصره في الشؤون الفردية بعدما انهار نظام الجماعة. فالواقع المنحرف له أثره السيئ على الفكر لا محالة.
3. ضغط السياق الامبراطوري العالمي على الروح الإسلامية، فالقيم السياسية الإسلامية يصعب تطبيقها في عالم الامبراطوريات العسكرية الذي كان سائداً، فانهارت الخلافة الراشدة كما انهارت جمهوريات روما وأثينا من قبل تحت ضغط الوطأة الامبراطورية.

4. التأثير الزائد بالمواريث السياسية غير الإسلامية، من ساسانية ويونانية ورومانية، على حساب الاستمداد من الوحي القرآني والسنة النبوية في مجال السياسة والحكمة العملية.
5. فقدان العقل المسلم مرونته العملية بعد قرون من الانحطاط، فتحول العديد من المبادئ الإسلامية إلى أفكار نظرية مجردة: قد تُساقُ للتمدُّح بجلال الرسالة الإسلامية، لكنها لا تتخذ قاعدة منهجية هادية للعمل.
6. الجفاء الذي ساد بين أهل القرآن وأهل السلطان نتيجة سيادة الظلم السياسي، مما دفع الفقهاء إلى الإعراض عن هذه الجوانب من فقه التدين والزهد فيها.

بيد أن هذه النظرة المتشائمة تجاه الإصلاح السياسي لم تعد مستساغة في عصرنا الحاضر، حيث تعيش الأمة اليوم تحولا سياسيا، وسعيا للخروج من أزمتها السياسية المضنية، التي أُلقت بظلالها القاتمة على واقع الشعوب الإسلامية ودورها في الحضارة الإنسانية، وعلى مستقبل الإسلام رسالة ربانية هادية يحتاجها البشر حاجتهم إلى الماء والهواء.

إن لكل حضارة أزمتها، وأزمة الحضارة الإسلامية أزمة دستورية في جوهرها. وقد أدرك الشهرستاني ذلك فعبر عنه بالقول: (وأعظم خلاف بين الأمة خلاف الإمامة، إذ ما سُلَّ سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُلَّ على الإمامة في كل زمان)^[19]، وهي أزمة بدأت ليلة السقيفة، وتغلَّب عليها الجيل الأول من المسلمين جزئيا حوالي ربع قرن من الزمان، لكنها انفجرت مدويةً في نهاية خلافة عثمان وطيلة خلافة علي، واستحالت حربا أهلية طاحنة بين معسكر العراق بقيادة علي ومعسكر الشام بقيادة معاوية. وقد كانت معركة ليلة الهرير بـ(صفين) قمة التعبير التراجيدي عن تلك الحرب الأهلية، حيث كان (آخر أمرهم ليلة الهرير، وهو الصوت شبه النباح: فَنَيْتُ نبالهم، واندَقْتُ رماحهم، وانقصتُ سيوفهم، ومشى بعضهم إلى بعض، وتضاربوا بما بقي من السيوف وعمد الحديد، فلا تسمع إلا غمغمة وهمهمة القوم، والحديد في الهام، فلما صارت السيوف كالمناجل تراموا بالحجارة، ثم جثوا على الركب فتحاتوا بالتراب، ثم تكادموا بالأفواه، وكُسِفَتُ الشمس من الغبار، وسقطت الألوية والرايات، واقتتلوا من بعد صلاة الصبح إلى نصف الليل)^[20].

وليست ثورات القرن الأول الهجري إلا امتدادا لحرب صفين، وتعبيرا عن الأزمة الدستورية في الحضارة الإسلامية. ومن هذه الثورات ثورة الحسين بن علي الذي هبَّ (غضبا للدين وقياما بالحق" حسب تعبير القاضي أبي بكر بن العربي)^[21]، وانتهت ثورته بفاجعة كربلاء، وثورة أهل المدينة ضد يزيد، وقد (قاموا لله) حسب تعبير الحافظ الذهبي^[22] وانتهت ثورتهم باستباحة يزيد للمدينة المنورة. وثورة عبد الله بن الزبير في مكة، وثورة الثوابين بقيادة الصحابي سليمان بن صرد، وثورة الفقهاء بقيادة عبد الرحمن بن الأشعث. ثم ما تلى ذلك من ثورات أشعلها الخوارج وغيرهم طيلة الدولة الأموية.

ورغم أن الإسلام حمل رسالة كونية وألحَّ على أخوة الإيمان منذ البداية، فإن السياق الاجتماعي والثقافي في الجزيرة العربية - حيث ظهر الإسلام أول ما ظهر - لو يكن سياقاً توحيدا، لا بالمعنى الاعتقادي ولا بالمعنى الاجتماعي. فالعصبيات القبلية السائدة في الجزيرة العربية آنذاك كانت تتأبى على أي تعريف كوني للرابطة الإيمانية أو الإنسانية. ثم أضافت الفتوح الإسلامية السريعة تعقيدا جديدا إلى تلك المشكلات النبوية. وقد لاحظ

الفيلسوف محمد إقبال أن ما كسبه الإسلام خلال الفتوح الأولى من الامتداد كان خسارة له في العمق، فكتب يقول: (إنني أعتبر من الخسارة الكبرى أن يُوقَفَ تقدُّمُ الإسلام كدين فاتحٍ نموًّا أجنة التنظيم الاجتماعي والديمقراطي والاقتصادي التي أجدّها مبنوثة في صفحات القرآن وفي سنة النبي ﷺ) [23].

لقد تشبث العديد من المسلمين بأعرافهم الاجتماعية والسياسية ذات الجذور الضاربة في تاريخهم الثقافي، ولم يتخلوا قط عن ذاكرتهم الدينية والتاريخية. وخلال العقود التالية لوفاة النبي صلى الله عليه توسعت الجماعة المسلمة التي أسسها لتشمل عددا وافرا من الأمم والثقافات، دون أن تكون تلك الجماعة الأولى قادرة على استيعاب الوافدين الجدد في بنيتها السياسية، أو نسيجها الاجتماعي. ويصدق هذا الأمر -أكثر ما يصدق- على العراق والشام، مهد أولى الامبراطوريات الإسلامية الكبرى. فكلما البلدين كان مهد حضارات عتيقة، وما كان من الممكن تفادي الصراع بين النظام الجديد الذي قدمه الإسلام وبين التقاليد الاجتماعية والأعراف الثقافية العتيقة، ولا تجنب الصراع فيما بين تلك التقاليد والأعراف العتيقة ذاتها.

ثم انضاف إلى تلك التصدعات الكامنة انشطار مبكر في الجماعة المسلمة الأولى حول موضوع الشرعية السياسية. لقد بدأ الشقاق السياسي داخل تلك الجماعة الوليدة في اليوم ذاته الذي توفي فيه النبي (ﷺ)، وهو الشقاق التي سيتحول في العقود والقرون اللاحقة إلى انشطار اعتقادي.

ومهما يكن من أمر القيم المعطّلة مهما كان يكن جلالها لا يمكن أن تنافس القيم المفعّلة مهما يعترتها من ضعف في بنيتها الأخلاقية أو في تماسكها المنطقي. والقيم السياسية الإسلامية قيم مؤوودة ومغدورة منذ قرون متطاولة. ولا أمل للمسلمين في النهوض من كبوتهم التي طال أمدها، ولا من الفوضى السياسية الضاربة بأطنابها على مجتمعاتهم اليوم، إلا بتفعيل هذه القيم السياسية الإسلامية الجليلة، ونفض غبار التاريخ عنها.. وذلك ما سنسعى إلى الإسهام فيه من خلال هذه المقالات، والله الموفق لكل خير لا شريك له.

الخاتمة والاستنتاجات

أهم النتائج المستخلصة من البحث كانت كالآتي:

١. وجدت أن للواقع السياسي التاريخي بما انطوى عليه من اضطهاد وقمع لآل البيت أثر كبير في تفسير بعض الطوائف الإسلامية كالشيعة الأمامية التي تفارق الموضوعية في توجيهها للنص القرآني باعتمادها على آثار كانت غالبا عما في متنها من تناقضات فيما جاءت متحدثة فضلا ومرويات لم تثبت سندا عنه.

٢. إن الواقع السياسي التاريخي الذي تمثل بظلم بني أمية لأهل البيت ترك أثرا في نفوس بعض المفسرين حتى من أهل السنة كابن جزري الذي اتخذ موقفا مترمنا منهم ولكن هذا الموقف جاء من خلال تفسيره للقرآن مما أدى إلى وقوعه بانحرافات في توجيه النص القرآني الذي جاء من استدلاله المتعسف بمرويات كما تكلم في متنها أيضا فوضع سندا.

٣. ورأيت أيضا آثار القمع السياسي في العصر الحديث شاخصة في تفسير من أهم التفاسير المعاصرة وهو تفسير سيد قطب رحمه الله الذي يخرج في بعض سياقاته عن حقيقة الدلالة القرآنية عند اقتطاعها عن الدلالات الأخرى

إلى افتراضات عقلية ناجمة عن إرهاق نفسي عاشه المفسر في ظل نظام سياسي مستبد ومن ذلك تعويله في التفريق ما بين دلالاتي الإيمان والكفر على أن المعيار في إثبات الأولى ونفي الثانية هو العمل الذي يراه أبلغ من القول في ذلك ما عليه محققي الأمة من التفريق ما بين الاعتقاد القلبي الذي به مخالفا يثبت الإيمان أو ينتفي و ما بين العمل الذي لا دخل له في الاعتقاد وهذا ما تشهد عليه النصوص الكثيرة من القرآن والسنة.

٤ . يبين لنا أن هذا إن التحليل العميق لانحرافات المعتزلة في توجيه النص القرآني الانحراف لم يأت من ترف عقلي بقدر ما هو ناجم عن صراع فكري لهذه الفرقة مع فرق أخرى في بعض الانحرافات التي تبدو واضحة. ٥ . كان للحضارة الغربية بطبيعتها المادية أثرا ما يحاول أن وقع فيها الشيخ محمد عبده في تفسيره للنص القرآني الذي كثيرا يحاكي تلك النزعة المادية حتى أخرج بعض المعجزات والآيات الباهرات من مدلولاتها المنصوص على قطيعتها إلى تأويلات بعيدة عن روح النص القرآني.

٦ . عين عليه قراءة واقع المفسر سواء على القارئ كما يهتم بقراءة التفسير القرآني السياسي أو الفكري ليقف على الحد الفاصل ما بين حقيقة الدلالة القرآنية والدلالة المبتدعة من هذا المفسر أو ذاك.

في هذا البحث نتناول فيها القيم السياسية الكبرى في الإسلام، ونكشف عن مدلول تلك القيم في وضعها الشرعي، وما شابها من شوائب التاريخ، ومن سوء التأويل والتطبيق على مدى القرون. على أن نبدأ الحديث عن كل قيمة بتحرير معناها في الكتاب والسنة، ثم توصيف الضمور الذي عانت منه في فكر المسلمين وواقعهم. ولسنا نمح آراء فقهاء السياسة الشرعية والأدب السلطانية سلطة فائضة في هذا المضمار، بل نرى أن الثقة المفرطة في الشرح تحجب عن المتن، وأن سلطة التراث السياسي إذا بولغ فيها تصبح حاجزا بين الناس وبين معاني القيم السياسية الإسلامية كما وردت غضة في الوحي. فالغاية هنا ليست تاريخ الأفكار، بل نفض الغبار عن القيم السياسية الإسلامية، وإرجاع النبض إليها في العقول والأفئدة، لتكون معالم هادية لحياة المسلمين السياسية.

CONFLICT OF INTERESTS

There are no conflicts of interest

المصادر

*القران الكريم

- [1] أبي الحسن حسني، ترجمه من الفارسية: وائل علي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، 2018.
- [2] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، إيران، قم، ج 10: ص 443، 1385 هـ.
- [3] جان منيو، مدخل إلى علم السياسة، منشورات عويدات، بيروت: ص 860، 1983.
- [4] الجرجاني، علي بن محمد، كتاب التعريفات، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ص 96.
- [5] أحمد حسن الزيات، معجم الوسيط، المكتبة الإسلامية، ج 2، ص 698.
- [6] محسن عبد الحميد، الفكر الاسلامي تقويمه وتجديده، دار الانبار، العراق، ص 7، 1887
- [7] محمود شلتوت، تفسير الاجزاء العشرة، دار الشروق، القاهرة، 2004.

- [8] خالد عبد الرحمن العك، أصول التفسير وقواعده، دار النفائس، بيروت، ص55، 2003.
- [9] أجنّس جولد تسهير، مذاهب التفسير الاسلامي، القاهرة، ص313-314.
- [10] الألوسي، محمد شكري، الموسوعة العربية الميسرة الموسعة، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، ج7، ص3178.
- [11] عثمان بن حمد الخميس، حقيقة من التاريخ، دار الإيمان، الاسكندرية، ص223-225.
- [12] أبو جزري، بن أحمد، التسهيل لعلوم التنزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، ص549.
- [13] الزبيدي، ابن جزري، المنهج في التفسير، دار القلم، دمشق، 1987.
- [14] الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل القرآن، دار المكتب العلمية، بيروت، 2005.
- [15] مجلة الفيصل، عدد409، المملكة العربية السعودية، ص12، 2010.
- [16] مجيد خليفة، غرائب فقهية عند الشيعة الامامية، مؤسسة التاريخ، بيروت، ص72.
- [17] أبو زيد، نصر حامد، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ص67.
- [18] أركون، محمد، الفكر الإسلامي قراءة علمية، المركز الثقافي البيروت، ص43، 1987.
- [19] الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، مؤسسة الحلبي، ج1، ص22.
- [20] الحنبلي، عبد الحي بن أحمد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار ابن كثير، دمشق، ج1، ص211، 1986.
- [21] أبو بكر بن عربي، العواصم من القواصم، دار الجبل، بيروت، ص237، 1987.
- [22] الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج4، ص37، 1985.
- [23] مالك بن نبي، فكرة الافريقية الاسيوية، دار الفكر، دمشق، ص228، 2001.